فلسفة من الصين

كتاب ألفه الفيلسوف الصينى الكبير «لين يوتانغ».

كتاب ترجم إلى أكثر من لغة وطبع فى الانجليزية وحدها سبع عشرة طبعة.

والكتاب يتكلم عن «اليقظة» فى محاولة لفهم الحياة

وعن : «انواع من النظر الى الجنس البشرى

وعن : «تراثنا الحيوانى» وملحمة القرد

وعن: الفضول المرح ونشأةالحضارة الإنسانية

وعن: «عيد الحياة ومشكلة السعادة

ويتساءل فى صفحات طويلة:

من الذى يستمتع بالحياة أحسن استمتاع؟

ويستهل المؤلف، كتابه بالحديث عن «المثالية» و «الواقعية» ويتطرق من هذا إلى الحديث عن «روح الدعابة» التى يعتبرها، موهبة عظيمة.. إنها عنده «ترياق».

يبدو أن روح الدعابة وثيقة الاتصال بحس الواقع، أو الواقعية.. ولئن كان الناقد الساخر قاسيا فى نزع الغشاوة عن عينّى المثالى، إنه مع ذلك ليقوم هناك بمهمة أساسية جدا إذ يمنع المثالى من أن يحطم رأسه على حائط الواقع المشيد بجندل. ليس هذا فحسب بل إنه يخفف، فى رفق بالغ، من توتر المتحمس الذى يغلى رأسه كالكوز، ويمد فى عمره. إنه يعده لاكتشاف الحقيقة التى حجبتها الأوهام عن ناظريه، وبذلك يخفف عنه ألم الصدمة الأخيرة، لأن المداعب الساخر أشبه ما يكون برجل يعهد إليه فى حمل نبأ من الأنباء السيئة إلى رجل مشرف على الموت.. فقد يكون فى حسن تأتى صاحب الدعابة ما يحفظ على المريض حياته. واذا لم يكن بد، من أن تسير المثالية وخيبة الأمل جنبا إلى جنب فى هذا العالم فيتعين علينا أن نقول إن الحياة قاسية إلى حد الوحشية!).

والفيلسوف الصيني «لين يوتانغ» عنده أن اليابانيين والألمان متشابهون إلى حد بعيد في فقدان روح الدعابة ومع ذلك فمن المتعذر، كما يقول، أن نعطي صفرا لأي خاصة من الخصائص عند أمة من الأمم، حتى ولو كانت هذه الخاصة هي المثالية في الشعب الصيني والمسألة كلها مسألة نسبة.. والزعم بأن هذه الصفة أو تلك منعدمة عند شعب ما، ليس يقوم على معرفة وثيقة بذلك الشعب. من أجل ذلك أعطيت اليابانيين والألمان، واحدا ، في روح الدعابة بدلا من صفر وإني لأحس إحساسا باطنيا أني على صواب.

تُرى هل يريد أن يقول إن هذا سبب اندلاع حر بين عالميتين من المانيا في ربع قرن؟

والفيلسوف الصيني في كتابه يفضل العقل المتوسط الذكاء على العقل الذكي اللماح النافذ كالشعاع.

يبدو أنه صديق شاعرنا العربي الذي قال:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقد تقول: لعل العقل البشري هو أنبل نتاج تمخضت عنه الخليقة. وذلك قول جدير بأن يسلم به سواد الناس وخاصة حين يشير إلى عقل كعقل البرت اينشتين او اديسون أو عقول اولئك العلماء الفيزيائيين الذين يستطيعون أن يقسوا أشعة نجم مقبل أو نجم مدبر، وأن يخضعوا الذرات غير المنظورة لسلطانهم، أو حين يشير إلى عقل كعقل ذلك العبقري الذي اخترع «الكاميرا» الخاصة بتصوير الأفلام السينمائية بالألوان الطبيعية.. والحق اننا اذا قارنا أمثال هذه العقول بفضول القردة المتحير المتلمس، الذي لا هدف له ولا غاية، تحتم علينا أن نقر بأن لنا عقلا نبيلا مجيدا يستطيع أن يفهم الكون الذي ولدنا فيه.

هنا يقول: بيد أن العقل المتوسط فاتن أكثر منه نبيلا:

وعندي أن الخطة التي يكون المرء على مثل اليقين من تطبيقها بحذافيرها خليقة بأن تفقد متعتها من اول الطريق.. فالقائد الذي يسير إلى ميدان القتال وهو واثق من انتصاره على العدو وثوقا كاملا، وقادر على أن يتنبأ بعدد الضحايا التي سيتمخض عنها القتال، يرجح أن يفقد شوقه إلى المعركة، بالكلية، وقد ينفض يده من هذه المهمة كلها. وليس يلعب أحد الشطرنج إذا ما علم أن عقل خصمه لا يتطرق اليه ، الخطأ.

أعطنى مجتمعا حسن التنظيم حقا، ولكن لا تعطنى مجتمعا مبالغاً فى حسن تنظيمه.. وهنا يحضرنى مثل النمل الذي يؤلف أو يكاد يكون أكثر الكائنات عقلانية على وجه الأرض. فليس من ريب فى أن هذه الجماعة قد وفقت الى إنشاء دولة اشتراكية كاملة إلى درجة ساعدتها على أن تعيش، على هذا المنوال، طوال المليون السنة الأخيرة، فى أغلب الظن. وعندى أنه يتعين علينا أن نتخلى عن عقلانية السلوك الكاملة لجماعة النمل، وأن ندع الكائنات البشرية تأتى فى المرتبة الثانية (وإنى لأشك كثيرا فى ما اذا كانت هذه الكائنات تستحق ذلك). فالواقع أن جماعة النمل تتألف على عكسنا من كائنات منظمة أحسن التنظيم وأصرمه من الناحيتين الاجتماعية والفردية. إنها لا ترى بأسا فى أن تعمل أربع عشرة ساعة، كل يوم من أجل الدولة والمجتمع، وإنها لتتصف بالثبات، والنظام، واللطف، والشجاعة، وتتميز فوق ذلك كله بالضبط الذاتى. أما نحن فلا نؤلف غير نماذج رديئة من الضبط الذاتى، رديئة بشكل فاضح.

ويمعن فى السخرية إذ يقول: طف بقاعة من قاعات الشرف تتزاحم فى رواقها تماثيل عظماء التاريخ؛ تجد عقلانية السلوك آخر شيء يمكن أن تمثله حياتهم فهذا يوليوس قيصر الذى وقع فى حب كليوبطره- يوليوس النبيل الذى كاد ينسى (كما قد نسى انطونيوس بالكلية) امبراطورية من أجلها..

وهذا الملك داود الذى كان وحشيا حينا، كريما حينا، والذى كان يعبد الله ثم يتردى فى الآثام ويكتب مزامير التوبة ويعود إلى عبادة الله من جديد.

وهذا كونفوشيوس الذى قال لأحد زائريه إنه خارج البيت، حتى إذا بعد الزائر عن الباب بعض الشيء، أنشأ يغنى لكى يعلمه أنه موجود فى بيته..

وهذا «جوناتان سويفت» و «ستيلا» و «إبسن» و «اميلى بالرداخ»

والانجليز يقدمون لنا مثلا بارزا على العقل السليم.. ذلك بأن هؤلاء القوم أصحاب منطق رديء، ولكن لهم ملامس فى ادمغتهم لتحس الخطر والمحافظة على الحياة.. والحق أن قوة الامبراطورية البريطانية لتقوم على انعدام التفكير عند الانجليز وعلى عجزهم الكلى عن رؤية وجهة نظر الشخص الآخر، وايمانهم القوى بأن الطريقة الانجليزية هى وحدها الطريقة الصحيحة، وأن الطعام الانجليزى هو وحده الطعام الصالح..

إن للانجليز بشرة حمراء خلعها عليهم، من غير ريب ضباب لندن ولعبة الكريكيت.. ومثل هذا الجلد الناضح صحة لا يستطيع إلا أن يلعب دورا فى تفكيرهم، يعنى فى عملية تحسسهم الطريق التى ينبغى أن يسلكوها فى الحياة.

وكما يفكر الانجليز بواسطة جلدهم الذى ينضح صحة، كذلك يفكر أهل الصين بواسطة أمعائهم. وتلك حقيقة مقررة فى الصين فنحن الصينيين نعلم علم اليقين أننا نفكر عن طريق أمعائنا. فنزعم أن لفلان «ملء جوف من الأفكار» أو «من الشعر والأدب» ونقول «ملء جوف من الأسى» أو «من الغضب» أو «من الشوق». والعشاق الصينيون الذين تفرق ما بينهم الايام يدبجون الرسائل الغرامية قائلين: «ان الفراق قصم أحشاءهم».

وليس معنى هذا أنه ينتقص من مقدرة العقل الانسانى فى ميدان الكون الطبيعى، وفى كل ميدان آخر خلا العلاقات الإنسانية فمن الجائز أن يكون البشر قد بلغوا، بوصفهم أفرادا ، مرتبة عالية من الرقى، ولكن البشر لا يزالون بوصفهم مجموعات اجتماعية، خاضعين لشهوات وانفعالات بدائية، وردات عارضة للغرائز الوحشية، وموجات طارئة من التعصب وهستريا الجماعة.

وهنا يأتى دور تراثنا الحيوانى.. فإن معرفتنا بأننا أقرب ما نكون إلى البهائم قد يساعدنا على أن نكبح من جماح سلوكنا على طريقة البهائم. وتراثنا الحيوانى هذا يجعل من اليسير علينا أن نرى أنفسنا على حقيقتها فى الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوان، كأمثال إيزوب، وبرلمان الدجاج لتشوسر chauser ورحلات جلفر سويفت Swift وجزيرة البنجوين لأناتول فرانس.

لقد كانت هذه القصص صالحة فى عهد ايزوب، ولسوف تظل صالحة أيضا فى سنة ٤٠٠٠ بعد الميلاد!

إنه كما يبدو يمقت الغرور والتعالى والادعاء.

والحل عنده أن تثقيف حواسنا وعواطفنا أكبر أهمية وأعظم خطرا من تثقيف أفكارنا.

لقد اخترع الإنسان حضارة وليس هذا بالشىء القليل وقد يكون ثمة حيوانات أجمل من الانسان وأحسن شكلا وأنبل تكوينا، كالفرس مثلا، وحيوانات أقوى عضلات منه كالأسد، أو

أقدر على الشم وأكثر انقيادا ووفاء كالكلب، أو أحد بصرا، كالنسر، أو أقدر على الضبط الذاتى والعمل الشاق، كالنملة، أو أرق طبعا وأرضى خلقا كالحمامه أو الظبى، أو أكثر قناعة وصبرا كالبقرة أو أعذب صوتا كالبلبل أو أجمل ثوبا كالببغاء أو الطاووس، ومع ذلك فإن فى القرد شيئا أو ثره على جميع هذه الحيوانات.. وإن فى الانسان شيئا من فضول القرد وبراعته يجعلنى أفضل أن أكون إنسانا.. صحيح أن النمل أحسن تنظيما من بنى الإنسان، كما سلف منى القول، وأن لها حكومة اكثر استقرارا من بعض حكوماتنا اليوم، ولكن هل عند جماعة النمل، مكتبة أو متحف؟ لا.

وحالما تخترع النملة أو الفيل، مرصدا عملاقا، او تكتشف نجماجديدا، أو تتنبأ بحدوث كسوف شمسى أرانى مستعدا لأن اقر لأى منهما بزعامة العالم والسيادة على المخلوقات.. أجل فى ميسورنا أن نفخر بأنفسنا، ولكن من ا لخير أن نعرف ما الذى ينبغى لنا الافتخار، به وبكلمة أخرى، أن ندرك جوهر الكرامة الإنسانية.

وعند الفيلسوف الصينى الكبير أن: الفضول المرح، هو السبب فى نشأة الحضارة الانسانية.. السبب فضول الانسان المرح فى محاولاته الأولى تلمس الأشياء بيديه وتقليبه اياها ظهرا لبطن ابتغاء فحصها ودرسها، كما يقلب القرد فى ساعات فراغه جفن قرد آخر أو شحمة أذنه بحثا عن القمل أو رغبة فى قلب الجفن أو شحمة الاذن من أجل القلب ليس غير. اذهب الى حديقة الحيوانات وراقب قردين يعالج كل منهما اذن الآخر، تجد فى برديهما نواة لعالم كاسحق نيوتن أو البرت آينشتين!!

وهذا التصوير لنشاط اليد البشرية المتلمسة المكتشفة ليس كلاما مرسلا على عواهنه.. انه حقيقة علمية.. فاساس الحضارة الانسانية نفسه انما بدأ عندما تحررت يدا الانسان نتيجة اصطناعه وضعا منتصبا وصيرورته ذا رجلين اثنتين.. ومثل هذا الفضول المرح يمكن أن نشاهده حتى فى القطط حالما تتحرر قوائمها الامامية من مهمة السير والنهوض بعبء الجسم.. وقد كان من اليسير على القطط أن تنشىء حضارة ما، شأن القردة، لولا هذه الحقيقة، وهى أن أصابع القردة كانت تطورت تطورا حسنا من طريق ضم الأغصان بعضها الى بعض، فى حين أن براثن القطة براثن، أى مجرد كتلة من اللحم والغضاريف.

ولأنس لحظة قصيرة أننى لست عالما بيولوجيا ولأطلق لتأملاتى العنان حول نشوء الحضارة الإنسانية من تحرر اليدين هذا، لان لدى بعض الملاحظات التى آحب أن أبسطها، والتى قد تكون فاتت غيرى من الباحثين فى هذا الموضوع، فالحق أن اصطناع القامة المنتصبة وما عقبه من تحرر اليد كانت له نتائج بعيدة الأثر.. فقد آدى ذلك إلى استعمال الأدوات، وإلى الحياء واخضاع النساء، ونشأة اللغة، وتعاظم الفضول المرح وغريزة الكشف عند الإنسان.

وفى رأى الفيلسوف الصينى أن تحرر اليد، أحدث انقلابا فى التعبير عن الحب.

ذلك بأن التقبيل كان لايزال غير سائغ ولا ناجح على ما نرى حين يقبل قرد من نوع الشيمبانزى قردا آخر، بفكيه الغليظتين، المصفقين، النائتين فأنشأت اليد حركات جديدة أرق وأنعم هى التربيت، والمداعبة والعناق وكلها ثمرات عارضة لمحاولة الرجل اقتناص القمل السارى على جسم المرأة ومحاولة المرأة اقتناص القمل السارح على جسم الرجل.. ولست أشك فى أن الشعر الغنائى ما كان يمكن أن ينشأ لو كان أجدادنا الشعر، خالين من القمل وأضرابه..!

ومن تصيد القمل هذا نشأت روح البحث الحر فى سبيل المعرفة!!

ومن تعليلاته الطريفة أن ذراع الرجل كانت أقوى على ما يبدو ولم يكن ثمة سبيل إلى مقاتلته، واذن فلماذا لا تلجأ المرأة إلى رشوته ومداهنته وارضائه؟ وتلك هى الصفة الحقيقية التى تطبع حضارتنا حتى فى يوم الناس هذا.. فبدلا من أن تتعلم المرأة كيف تقاوم وتهاجم، تعلمت كيف تفتن وتجذب، وبدلا من أن تسعى إلى بلوغ أهدافها بالقوة، عمدت إلى تحقيقها بأساليب أرق.. والرقة، بعد، هى الحضارة.

وبمثل هذه الطرافة والفكاهة، يعلل الفيلسوف الصينى، نشأة اللغة.

يقول: أنا أزعم، أيضا، أن المرأة لعبت دورا أعظم من دور الرجل فى انشاء الثرثرة، التى نطلق عليها اليوم لفظ اللغة.

والواقع أن غريزة الثرثرة عميقة الجذور عند النساء إلى درجة تحملنى على الاعتقاد بأنهن ساعدن على خلق اللغة الإنسانية بأكثر مما ساعد الرجال.

والذى يخيل الى أن أسلافنا كانوا كائنات عابسة صامتة، وأن اللغة البشرية بدأت عندما كان الذكور من القردة الشبيهة بالإنسان قد خرجوا للقنص بعيدا عن كهوفهم، وانبرت امرأتان جارتان

للبحث امام كهفيهما، فى أى أفضل زيد أم عمرو، وكيف أن عمرا كان شديد الكلف بصاحبته فى الليلة الماضية فهو يستغضب فى سهولة ويسر.. على مثل هذه الشاكلة، بدأت اللغة البشرية.. وليس يمكن أن تكون بدايتها على صورة أخرى.

والفيلسوف الصينى، يعلل نشأة الفلسفة، والعهدة عليه، من صفتين عند الإنسان

- روح الضجر والاستياء
- قدرته على التخيل وصياغة الأحلام

وفى محاولة تبرير أو تأكيد أو إثبات يقول:

الواقع أن القرد كان أول حيوان عبوس، فأنا لم أشهد فى الحيوانات وجها كئيبا حقا غير وجه الشمبانزى.. وكثيرا ما خطر لى أن الشمبانزى لابد أن يكون فيلسوفا، لأن الحزن والتفكير ابنا عمومة، وأنا أقرأ فى وجهه ما يؤذن بأنه يفكر ويقدر. إن البقرة لا تعرف التفكير، أو قل إنها لا تبدو وكأنها تتفلسف، لأن مسحة من الرضا تطفو على وجهها أبدا. والفيل قد يعصف به غضب مروع، ولكن تذبذب خرطومه تذبذبا دائما، يحول، فى ما يبدو، بينه وبين التفكير، ويرد عنه عادية الأسى والاستياء.. أما القرد فهو الحيوان الوحيد الذى تقرأ فى أسارير وجهه معانى فى التبرم بالحياة.. وليس من ريب فى أن هذا الحيوان عظيم حقا.

ولعل الفلسفة بدأت، أول ما بدأت، مع روح الضجر، والاستياء.. ومن خصائص البشر، على أية حال، الحزن والغموض، والتوق الدائب إلى مثل أعلى.. ذلك أن الإنسان، على الرغم من عيشه فى عالم واقعى، نزاع إلى أن يحلم بعالم آخر.. ولعل الفرق بين الانسان والقردة هو أن القردة يعتريها السأم ولاشىء وراء السأم، فى حين أن الإنسان يجمع إلى السأم والضجر خيالا. فنحن جميعا نرغب فى الخروج من الحجر القديم، ونحن جميعا نود أن نكون غيرما نحن، ونحن جميعا تراودنا أحلام عريضة.

وكلما قويت موهبة الخيال عند المرء، ازدادت همومه وتعاظم استياؤه. وهذا هو السبب الذى من أجله يبدو الطفل الخيالى مرير العود، صعب المراس فهو أميل إلى الحزن والعبوس، شأن القرد، منه الى الهناءة والرضا، شأن البقرة.

والحلم نعمة حين يكون ارهاصا لشىء كبير، فقد حلم توماس اديسون وحلم روبرت لويس ستيفنسون وحلم السير وولتر سكوت.. اولئك الثلاثة جميعا حلموا فى طفولتهم احلاما.. ومن

مادة هذه الأحلام الذهبية وأمثالها نسجت مجموعة من أجمل الطرف التى عرفتها البشرية وأروعها.

والفيلسوف الصينى يكبر من شأن الدعابة والظرف.. فعنده أن الناس الذين لا يقدرون الدعابة والظرف حق قدرهما، ولا يدركون اثرهما فى تغيير وجه الحياة الثقافية كلها.. ولما كانت وظيفة الدعابة كيمائية أكثر منها فيزيائية، فانها تغير النسيج الاساسى لتفكيرنا وخبرتنا.

وهنا نأتى إلى الجد.. إن الفيلسوف الصينى يقول إن من أخطر الخطر أن يكون حكامنا غير قادرين على الابتسام.

لأن هؤلاء الحكام هم الذين يسيطرون على السلاح كله.. ومن ناحية ثانية، فإن أهمية الدعابة البالغة فى دنيا السياسة لا يمكن أن تدرك إلا اذا تخيلنا عالما يتولى مقاليده نفر من عباقرة الظرف والدعابة..

- وهنا يقترح وأنا اؤيده:

أرسل، مثلا، خمسة أو ستة من أبرع الرجال فى هذا الميدان إلى مؤتمر دولى وزودهم بصلاحيات مطلقة كصلاحيات الحاكمين بأمرهم، تجد العالم قد نجا من خطر الحرب ورزاياها.

ويستطرد الفيلسوف الصينى فى حماس قائلا: وإذا كانت الدعابة تجرى ضرورة مع قوة الادراك والروح المنطقية بالإضافة الى ضرب من القوة العقلية النادرة على تحرى وجوه التناقض والحماقات والمنطق السقيم، وإذ كان ذلك أسمى أشكال الذكاء ففى ميسورنا أن نثق بأن كل أمة ستكون ممثلة على هذه الشاكلة بأحسن عقل فيها، فى ذلك المؤتمر.

وهو يؤمن بأن الدعابة قادرة على تغيير طابع تفكيرنا وصفته العامة وأنها قادرةعلى الامتداد بعيدا إلى جذور الثقافة نفسها ويمهد السبيل لبزوغ فجر عصر جديد تسود فيه الناس روح الاعتدال، وتهيمن عليهم قوة الادراك والتفكير السهل، والمزاج المطمئن، والاستشراف المثقف.. ذلك بأن العالم المثالى لن يكون عالما عقلانيا، ولا عالما كاملا بأى معنى من المعانى، ولكن عالما تدرك فيه نواحى الضعف فى يسر وسهولة، وتسوى فيه المنازعات فى دراية وتعقل.

وهو يؤمن بأن العذوبة والظروف قمة من قمم البساطة وأن بساطة العيش والفكر أسمى وأسلم مثل أعلى للحضارة والثقافة.. وبأنه حين تفقد الحضارة، صفة البساطة تأخذ سبيلها إلى

التفسخ والانحلال، وعندئذ يصبح الانسان عبدا رقيقا للمطامح والنظم الاجتماعية التى انتجها هو بنفسه.

والواقع أن البساطة آية على عمق التفكير ورمز له. ويبدو أنها من أعسر المطالب فى التعليم والكتابه.

إن البساطة ايذان بالنضج والدليل أننا كلما تقدمنا فى السن أصبحت فكرتنا أوضح، واتخذت معانينا أشكالا أكثر تحديدا وبلغنا إشراق المعرفة الحقيقى الذى ندعوه الحكمة.

إن الإنسان العذب الرضى الظريف أكثر اتصالا بالوقائع والحقائق فى حين أن الإنسان النظرى أشد انصرافا إلى المناقشة والجدل.

الظريف أكثر توثبا ورشاقة وفطنة فهو فى نجوة من مختلف ضروب التمهل المصطنع والتمويه الكاذب، واللغو الثقافى والبلاهة الأكاديمية، والخداع الاجتماعى.

سؤال:

كيف نستطيع أن نعمل فى سلام، ونصبر فى نبل، ونعيش فى سعادة؟ من نحن؟ بعبارة أخرى

سؤال يكاد يكون من المتعذر، الإجابة عنه..

ولكننا متفقون جميعا على أن تلك الذات المنهمكة فى ضروب النشاط اليومى ليست هى ذاتنا الحقيقية.. إننا على أتم اليقين من أننا فقدنا شيئا بسبب السعى المجرد وراء الرزق.

وحين ننظر إلى رجل يركض لاهثا فى أحد الحقول، يكون فى استطاعة الحكيم أن يسأل النظارة: أى شىء أضاع ذلك الرجل؟ فيقول بعضهم إنه أضاع ساعة، ويذهب آخرون إلى أنه أضاع حلية من الماس، ويزعم غيرهم غير ذلك حتى اذا أخفقوا جميعا فى الإجابة عن السؤال، التفت إليهم الحكيم وقال «اليكم الجواب عن سؤالى ذاك: لقد أضاع الرجل بعض أنفاسه!

وهنا نفهم القول: (إن الخسارة دائما تتبع السعى فى سبيل الربح)

ويل للمدينة الاصطناعية لقد عدت على القلب النضر المولود مع الإنسان اعتداء كأثر الفأس فى الغياض والغابات.

ينتقل الفيلسوف الصينى إلى الحديث عن الخوف إن بعض الناس استطاع أن يتحرر من خوف الموت ولكنه لم يستطع أن يتحرر من خوف آخر أشد ذيوعا وانتشارا.. ذلك هو خوف المرء من جيرانه.. أى الخوف من الإنسان.

إننا جميعا ممثلون فى هذه الحياة.

وهذه الموهبة المسرحية، مضافا إليها موهبة التقليد التى هى جزء منها، هما أبرز خصائص وراثتنا القروية.

ولهذه النزعة كما يقول ساخرا محاسن لا تنكر أبرزها تصفيق النظارة.

إن غريزتنا المسرحية عميقة الجذور إلى حد يجعلنا ننسى، فى كثير من الأحيان، أن لنا حياة حقيقية يجب أن نعيشها خارج المسرح وهكذا ترانا نكد ونجهد ونحيا حياتنا، لا من أجل أنفسنا ووفقا لغرائزنا الحقيقية، ولكن رغبة منا فى انتزاع موافقة المجتمع شأن (العوانس اللواتى يصنعن بأبرهن ثياب الزفاف لغيرهن من النساء) كما يقول المثل الصينى.

والاعتراض الوحيد، عنده، على موهبة التمثيل الجماعية، هو أن الممثل قد يحل محل الانسان ويستحوذ عليه استحواذا كاملا.. ولكن العالم لا يخلو من بضع نفوس مختارة تستطيع أن ترتدى ثوب الشهرة والمنصب الرفيع بابتسامة رقيقة وتظل هى هى فلا زهو ولا غرور ولا بطر.. أولئك هم الذين يذكرون حين يمثلون أدوارهم أنهم ليسوا غير ممثلين والذين لا تخدعهم عن أنفسهم أوهام المنصب أو اللقب أو الثروة، والذين يتقبلون هذه كلها إذا ما اعترضت سبيلهم بابتسامة راضية رضيه، ولكنهم يرفضون أن يؤمنوا أنهم قد غدوا بسبب من ذلك ناسا غير الناس أو ناسا فوق الناس. وهذا الصنف من الرجال، ذوى الروح العظيمة حقا، هو الذى يحتفظ أفراده بطابع البساطة فى حياتهم الشخصية.. من هنا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن البساطة هى آية العظيم فى كل زمان ومكان.

وفى الكتاب حديث عميق عن رموز جميلة رائعة.. منها: «الماء» رمز القوة التى يتمتع بها الضعيف.. الماء الذى ينسكب فى رفق ولطف فيحدث ثقوبا فى صخرة عاتية..

«الوادى» رمز يمثل رحم الأشياء كلها وأمها إنه يمثل الأنثى.

إن روح الوادى لا تموت أبدا

وهى تدعى الانثى العجيبة

وإن مجاز هذه الانثى العجيبة

هو الأصل الذى انبثقت منه الارض والسماء.

إنها هناك، فى ذواتنا أبدا،

فانهل من معينها ما شئت

فهى لن تعرف النفاد.

وليس من التكليف البعيد، بحال من الأحوال، أن نزعم أن الحضارة الشرقية تمثل المبدأ المؤنث.. وأن الحضارة الغربية تمثل المبدأ المذكر

أقول ولهذا يعتقد الفرنسيون أن كل فنان رجلا او امرأة بداخله أنثى ومن هنا يكون عطاؤه ثرا لا ينضب.

وعند الفيلسوف الصينى، من الحقائق المقررة أن المخبولين يتمتعون بشعبية واسعة. وليس من ريب عنده ان الناس سواء أكانوا من أهل الشرق أو من أهل الغرب، يكرهون الرجل البالغ الذكاء فى تعامله مع زملائه ورفاقه

أقول الانجليز فى هذا الصدد، يقولون

He is too clever to be trusted.

يقول الفيلسوف الصينى «اننا نحب الخادم الأبله لأنه أجدر بثقتنا، ولأن فى استطاعتنا أن نستمتع بحريتنا، فى حضرته استمتاعا أكثر وفى غير تحرز واحتياط.. وأولو الحكمه من الرجال، أو كثرتهم الكبيرة، لا يختارون شريكات حياتهم من بين النساء البارعات الذكاء، والكثرة الكبيرة من النساء الحكيمات لا يخترن ازواجهن من بين أصحاب الذكاء اللامع بأكثر مما ينبغى».

أنا لا أوافقه على «التقية» فى الزواج أو البعد عن الذكاء فالذكاء نعمة يطوى المسافات.. الذكاء شعاع ينفذ إلى النفس ويضىء جوانبها.. الذكاء لمعة فى العين ونور الابتسامه، و «ضى»

يعطى، الروح، وسامه.. هذا إذا توفر بين اثنين بدرجة سواء أو حتى متقاربة.. هنا يغدو، الذكاء هناءة متبادلة وعالما رقيقا وعميقا فى وقت واحد.

ويعود الفيلسوف مرة أخرى إلى «البساطة» أثيرته المفضلة فيرى «الحطاب» سيد الروابى الخضراء، و «الصياد» سيد المياه الزرقاء مع أن الروابى الخضراء ما تنفك ناضرة، والمياه الزرقاء تجرى لمستقر لها لمجرد الرغبة فى امتاع نفسها.

ومن الطريف -ما أكثر الطرائف فى هذا الكتاب- حديث الفيلسوف المؤلف عن «الوان السعادة عند الآخرين فالكاتب الأمريكى «ثورو Thoreau» كان يراها فى الاستماع إلى موسيقى الصراصير.. وعنده أسباب فالصراصير كما يقول لم تتجرع من ضروب الخمير غير الندى.. فليست أناشيدها نفثات حب زائلة تخمد بانقضاء فضل لتنتحى مكانا بعيدا عن ثورة الفصول.. وإن نغمتها لواحدة، كالحقيقة، لا تتغير.. وليس يسمع الناس غناء الصراصير إلا حين يكونون فى لحظاتهم الأكثر حصافة ورجاجة عقل.

أما «هويتمان» فقد التقت عنده حواس البصر والسمع والشم فى قمة وهو يصف عاصفة ثلجية..

لم تكن ثمة رياح، ومع ذلك فإن الهمهمة الموسيقية الخافتة المنبثقة من خلال أغصان الصنوبر، كانت تسكن حينا وتندفع حينا.. إن الحواس كلها لتستمتع بهذا المشهد، حتى حاسة الشم.. فقد غطى الثلج الأرض والنباتات الدائمة الاخضرار وشجيرات الغار وصفوف الصنوبر الطويلة المستقيمة المثقلة بأحمالها، وفاحت مع ريا الثلج رائحة راتينجية خفيفة... ذلك بأن ثمة عبيرا لكل شىء، حتى للثلج، شرط أن تكون لك القدرة على تحريه. وهذا العبير نفسه يتفاوت بتفاوت الزمان والمكان.. فما أعظم الفرق بين عبير الظهيرة وعبير منتصف الليل، أو ما بين عبير الشتاء وعبير الصيف، أو ما بين عبير العمل حيث تعصف الرياح الهوج، وعبير العمل حيث يجرى النسيم رفاء لا يحرك شيئا!!.

ويعزو الفيلسوف المؤلف، رهافة هويتمان إلى العيش فى الريف الذى يتيح لهذه الفروق الرفيعة فى البصر والشم والسمع أن تظهر وتحس بينما تضيع فى حياة المدن فى رتابة الجدران الرمادية والمماشى الأسمنتية.

ومن السعادة عنده أن يفتح بطيخه حمراء ناضجة ذات أصيل من أصائل الصيف. ويهتف كالطفل أليست هذه سعادة؟

الحقيقة إننى أوافقه فأنا أحب البطيخ جدا فى الصيف ربما أيضا لأنى أهلاوية أحب اللون الأحمر فى البطيخ والتفاح والورد وشمس الأصيل على صفحة النيل «أرجوانيه ذهبية معا

ومن السعادة عنده أن يعود رحالة إلى وطنه بعد غيبة طويلة، فيرى إلى باب المدينة العتيق، ويسمع إلى النساء والأطفال يتحدثون، على ضفتى النهر، بلهجته أو بلغته. ويهتف مرة أخرى: أليست هذه سعادة؟

أن تفتح النافذة لتيسر لنملة ما سبيل الخروج من الغرفة.. آه، أليست هذه سعادة؟

وهنا يذكرنى بشاعرنا أبى العلاء المعرى فى بيتيه:

تسريح كفك برغوثا ظفرت به ... أبر من درهم تعطيه محتاجا

كلاهما يتوقى والحياه له ... عزيزة ويروم العيش مهتاجا

إن الاستمتاع بالحياة استمتاعا يشع السعادة يتمثل فى أشياء كثيرة ملك أيدينا قد يغفل عنها عباد المال مع أن هذه الأشياء يعجز مال الأرض عن شرائها أقصد شراء القدرة على تذوقها الأشجار.. الأزهار.. والسحب والأنهار والشلالات وبدائع الطبيعة وروائع الكون.

الفن- الشعر.. الأدب بحلاه ورؤاه.. التأمل.. الصداقة والحديث والقراءة.. ابتسامة طفل.. دمعة مسافر لقاء وطن بعد الغياب.. الشوق.. لأ لاء صوت أم كلثوم.. يجمع الأرواح السفه النقية.. وهو يترقرق حينا ويتدفق آنا.. نيلا مع النيل..

وبعد فإن كتاب هذا الفيلسوف الصينى نحن بحاجة إلى قراءته فى ركام الهموم التى نعيش فيها لأنه سلسلة متصلة من الضحك المتفلسف أو الفلسفة الضاحكة.. المرحة.. الساخرة.

إنه جديد طريف يجلو الصدأ ويصالح المجهود والمكدود مع الحياة.